لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .﴾ القلم ١٧-٣٣ .

وفي هذا الشأن ــ أيضاً ــ يحدثنا د٠ يوسف القرضاوي ، فيقول :-[٨٥]

" لقد دمغ القرآن الكريم بالطغيان والفساد حضارات ، أقامت من البناء المادي آيات ، وخلدت مصانع وعمارات ، ومع هذا استحقت عذاب الله ﷻ ونقمته ، برغم ما كان لها من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ؛ ذلك لأنهم عمروا الأرض وخربوا الإنسان ، وأقاموا المباني وهدموا المعاني ، عملوا للدنيا ونسوا الآخرة ، أكلوا نعمة الله ﷻ ولم يؤدوا شكرها ، حابوا الأقوياء وطغوا على الضعفاء ، أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، من هنا كانت عقوبة الله لهم ، وتدمير الله عليهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وإنذاره للظالمين بعدهم أن يصيبهم ما أصابهم إن لم يتداركوا أنفسهم بتوبة وإصلاح .

ولم يغن هذه الأمم من عذاب الله ﷻ ما شيدته من حضارات مادية ، وآثار عمرانية شاهقة ، مثل ما تركته عاد إرم ، وما نحتته ثمود في الجبال من بيوت لم تزل بقاياها مشهودة إلى اليوم ، وما أقامه فرعون من أوتاد لعلها تلك الأهرام الفارعة التي تشهد بطول باعهم في فن الهندسة والعمران إلى اليوم .

---

(٨٥) أنظر لمزيد من الاستفادة : الإسلام حضارة الغد ــ د٠يوسف القرضاوي ص١١٩-١٢٦ ، فقد اعتمدت عليه في بيان حكم القرآن الكريم على هلاك الحضارات البشرية الزائفة ــ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

وهاكم نماذج من آيات القرآن الكريم تشهد بالآثار الحضارية للأمم المادية الوضعية ولم تغن عنهم شيئاً :-

قال ﷻ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . ﴾ الفجر ٦-١٤ .

وقال جل شأنه في شأن فرعون وقومه :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ الدخان ٢٥-٢٩ .

وقال ﷻ في شأن عاد وما بنوا وشيدوا ، وكيف حذرهم نبيهم هود من الاستغراق في المتاع المادي على حساب الجانب الروحي ، لكنهم استكبروا وطغوا في الأرض بغير الحق فكان عاقبة أمرهم الهلاك والدمار ، تأمل الآيات الواردة في سورة الشعراء ١٢٣-١٤٠ .

وما قصه القرآن لموقف عنادهم في قوله ﷻ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ . ﴾ فصلت ١٥-١٦ .

* ويحدثنا القرآن الكريم عن ثمود الذين : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ .

في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . ﴾ الشعراء ١٤٢-١٥٢ .

وفي سورة النمل يقول عنهم ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ﴾** النمل ٥٢-٥٣.

* كما قص علينا القرآن الكريم عن قوم لوط وما ابتكروه من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، وكيف دمر الله ﷻ عليهم قراهم ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾** هود ٨٢-٨٣ .

*كما حدثنا القرآن الكريم عن سبأ في اليمن وقد كان لهم في مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال ، ولكنهم أعرضوا وكفروا بنعمة الله ، فأرسل عليهم سيل العرم ومزقهم كل ممزق ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور .﴾** سبأ١٧ .

* كما أكد القرآن في مواقف كثيرة سنن الله ﷻ في إهلاك الأمم برغم ثرواتها وآثارها المدنية والحضارية ، محذرا اللاحقين أن يحذوا حذو السالفين في فساد اعتقادهم وأعمالهم ،قال الله ﷻ مخاطبا مشركي العرب: ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأ نشأنا من بعدهم قرنا آخرين .﴾** الأنعام ٦ .

﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ﴾** الروم ٩ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .﴾غافر ٨٢-٨٥ .

وبهذه الآيات المحكمات يمكننا أن نحدد موقف الإسلام من الحضارات المادية الزائفة التي أخذت الأرض فيها زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أو كادوا ، فهم مهددون ببأس الله ﷻ وعقوباته القدرية إن لم يتداركهم الله برحمة منه فيصلحوا ما أفسدوا ، ويرتقوا ما فتقوا ، وإلا فعذاب الله شديد ، وما هو من الظالمين ببعيد .

ومن ثم نوه القرآن الكريم في العديد من سوره وآياته البينات المحكمات على أن الأمم لا تقوم ولا ترقى ولا تنهض أو تسقط وتنهار اعتباطاً ، بل بناء على سنن ثابتة في الكون لا تتبدل ، وكان من أسباب هلاك الأمم كما نبهت آيات الله :-

(أ) الجحود بآيات الله ﷻ وعصيان رسله .

(ب) اتباع أمر كل جبار عنيد ، وإطاعة أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون كفعل عاد وثمود وغيرهما مما امتثل مسلكهما .

(ج) البهرجة بالعلم المادي ، والإعراض عما جاء به الوحي الإلهي كمشركي العرب وغيرهم .

(د) الغرور بالقوة المادية والثروة المالية والغفلة عن بأس الله ﷻ كفعل فرعون وقارون وغيرهما ممن أطاعهم في نهجهم .

(هـ) الظلم والبخس والبغي بغير الحق وخاصة على الفقراء والمستضعفين كفعل مدين قوم شعيب .

(و) اقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن واتباع الشهوات كفعل قوم لوط ومن سلك سبيلهم .

(ز) شيوع الفساد في الأرض واستعلان المنكر وعدم التناهي عنه كما فعل بنو إسرائيل ﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . ﴾ المائدة ٧٩ .

(ح) الكفر بأنعم الله وعدم القيام بشكرها بل استخدامها في المعاصي والآثام ﴿ ... مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . ﴾ النحل ١١٢ .

(ط) الترف والبطر ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ..﴾ القصص٥٨ .

ولا ريب في أن واحدة من هذه الجرائم حَرِية أن تعجل بعقاب الله وبأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين ، فكيف إذا اجتمع عدد منها في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ؟!!

والناظر في الحضارات الوضعية التي تسود عالمنا المعاصر يجدها قد أخذت بنصيب من حضارات الهالكين ، فلا غرو أن يُخشى عليها أن ينزل بأهلها ما نزل بهم ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ . فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . ﴾ إبراهيم ٤٥-٤٧ .

* وكما نبه القرآن الكريم عن أسباب هلاك الأمم نوه إلى قانون المداولة بين الأمم ، أو تبادل الأدوار في وراثة الحضارات ، وهو القانون الإلهي

العام المذكور في قوله ﷻ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . ﴾ آل عمران ١٤٠.

فالفقير لا يبقى فقيراً أبداً ، والغني لا يظل غنياً أبداً ، والقوي لا يبقى قوياً أبداً ، والضعيف لا يظل ضعيفاً أبداً ، والعليل لا يبقى عليلاً أبداً ، والصحيح لا يظل صحيحاً أبداً ، سنة الله في كونه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ، فكم من فقير يغتني ، وكم من غني يفتقر ، وكم من قوي يُهان ، وكم من ضعيف يعز ...

وكيف لا وقد قال الحق ﷻ في فرعون وقومه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . ﴾ الأعراف ١٢٣٧ .

وقال جل شأنه : ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . ﴾ الشعراء ٥٧-٥٩ .

وكما نبه لهذا القانون الإلهي في وراثة الحضارات المادية ، أجلى قاعدتين أساسيتين لوراثة الأمم الهالكة :

الأولى : أن المستضعفين المظلومين يرثون الجبابرة الظالمين الطغاة .

قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . ﴾ إبراهيم ١٣-١٥ .

الثانية : أن الصالحين هم الذين يرثون الفاسدين والمفسدين .

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . ﴾ الأنبياء١٠٥.

والصالحون كما تجلي الآية الكريمة هم القائمون بعمارة الأرض وخلافة الله ﷻ فيها بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كما قال جل شأنه :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . ﴾ الحج٤٠-٤١.

* كما حدث القرآن الكريم عن الاستدراج وحذر من عواقبه ، قال ﷻ :

﴿ ... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ. ﴾القلم٤٤-٤٥.

وهو الإملاء للظالم الذي ذكره رسول الله ﷺ حين قال : " إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا قوله ﷻ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . ﴾ هود ١٠٢ .(٨٦)

وكثيراً ما يكون هذا الأخذ بغتة حين لم تغن النذر ، ولم يعظهم ما أنزل الله بهم من فساد البر والبحر ؛ ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعوا ، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، قال الله ﷻ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً

(٨٦) رواه البخاري ومسلم ــ صحيح الجامع الصغير رقم ١٨٢٢.

فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلمـــوا والحمـد للـه رب العالمين.﴾ الأنعام ٤٤-٤٥.

إذا فلا غنى للبشرية عن الحضارة الإلهية الحقة الممثلة في دعوة الحـــق (الإسلام) ، بعد ما عانت الأمرين من جراء اتباعها للنـــهضات المادية الزائفة ، والمدنيات الخادعة .

فقد دق أدعياء الفكر الغربي أجراس الخطر من جراء التبعيـــة المطلقـــة للحضارات المادية ، حيث تفاقم الخطر ، وتطاير الشرر ، وبـــدا خطـــر المادية الزائفة ، بل وشرر الحياة الآلية لكل ذي عينين ، ولم يبق ذو عقل إلا وأعلن شكواه من هذا البلاء الواقع والمتوقـــع ، الظـــاهر والكـــامن ، كمون النار في البركان ، يوشك أن ينفجر في لحظة من اللحظات فيـــأتي على الأخضر واليابس ، وكفى بهم شـــــهداء علـــى حضارتـــهم الذيـــن يتفاخرون بها يوما ، فأصبحت تهدد حياتهم ، وتنذر بهلاكهم ودمارهم **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** الشورى٣٠.

ولم يبق لهم ــ إن أرادوا العودة إلى صوت الفطـــرة الإلهيـــة ــ ســـوى الرجوع إلى دعوة الحق باعتبارها قلب الحياة الإنسان وجوهرها ، والنور الذي يغمر القلوب ولا غنى للبشرية عنها ؛ لأن الأيديولوجيات الوضعيـــة لا تستطيع أن تحل محلها ؛ لأنها قد منحت أشياعها التعصب والتبـــاغض والصراعات الفكرية والدموية ، بينما دعوة الحق قد بدلت ثوب البـــاطل إلى الحق ، والعزلة والنفرة إلى الأخوة والمحبة والتعـــاون ، وحـــررت الإنسانية من التبعية للأهواء والشهوات إلى الخضوع للواحد الأحد الـــذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

تلك نماذج من الحضارات التي قامت ثم انهارت لخلوها من أسس ودعائم قيام الحضارات ، فقد فقدت العقيدة الحقة في الله ﷻ ولم تتأثر بالقيم التشريعية والأخلاقية الإلهية ، بل خضعت للأهواء البشرية واتبعت نتاج العقل البشري ، وهو وحده عاجز عن الإحاطة بكنه نفسه فكيف يضع أسساً لقيام الحضارات ، ومن ثم قامت هذه الحضارات الإنسانية وما لبثت أن انهارت وأصبحت أثراً بعد عين ، وقد صورها القرآن الكريم ليؤكد فساد هذه المدنيات التي تقوم على أسس واهية ودعائم باطلة ، ولتكون عبرة لمَنْ يعتبر ، وصدق الله ﷻ :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

الرعد١٧ .

عاشراً : من مزايا الحضارة الإسلامية .

تمتاز الحضارة الإسلامية بأن كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحي إلهي يمدها بالرقي والروح والقوة والتماسك وتوجهها إلى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب المادة والبعد عن الزهد والرهبنة المعطل ، وعن المادية الجامدة الفاسدة .

فهي في ميدانها العقدي تقوم على توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك العامة .

وهي في نظامها السياسي تقوم على مبدأ الشورى والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الإنسان والتزود بكل أسباب القوة والعزة والتمكين في الأرض .

وهي في الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالبشرية إلى الكمال والأمن والسلام .

وهي في نظامها الاجتماعي تقوم على الأسرة المتماسكة القائمة على أساس من المودة والرحمة والإخلاص والتعاون على الخير والبر وقيام كل راع بمسئوليته .

وهي في نظامها التشريعي تقوم على أصول رئيسية ، وقد تمثلت في الثروة الفقهية والتي تجلت فيها عبقرية الحضارة الإسلامية ، وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكري والعمل الموسوعي .

وهي في نظامها الثقافي تعتمد على طلب المعرفة من كل طلب ممكن ومن أي مكان ، واستخدام العقل في كسب المعارف وتسخيرها لسعادة الفرد والجماعة ، واعتبار الثقافة وعاءً فكرياً عاماً وتراثاً عاما للإنسانية جمعاء .

وهي بهذه المقومات والدعائم التي بُنيت عليها كان لها الأثر البالغ في النهوض بالأمة الإسلامية إلى الرقي والتقدم .

ويمكننا إيجاز أهم آثارها :-

* وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الأقدمين وما أضافت إليه من صنع عبقريتها المبدعة .

* كشفت النقاب عن مضمون حضارات البشرية الزائفة .

* أنقذت العالم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب في الحضارة واستعباد وظلم اجتماعي .

* أعطت العالم حضارة ثابتة تقوم في صورها على عقيدة التوحيد ودعائم لا يمكن انهيارها مما أصابا أتباعها نتيجة الضعف الإيماني الذي ران على قلوبهم أو الغشاوة التي طمست أعينهم أو انخداعهم ببريق الحضارات البشرية الزائفة وأعطت مجتمعاً جديداً يقوم على التعاون والتسامح والأخوة والمساواة والتعايش السلمي بين الجميع .

* أعطت العالم حرية في اختيار خير النجدين .

*أعطت الإنسانية خبرة ضخمة من المعارف أفاد منها الغرب في عصر الإحياء والنهضة ، واعتمد عليها العالم الإسلامي في بناء حضارته ونهضته المعاصرة ، وإن بدت مظاهر التخلف والأمية في حاضر الأمة الإسلامية كما سيتجلى ذلك جلياً من خلال هذه الدراسة ، وذلك بسبب حيدتها عن الحق وبعدها عن النهج السوي وفق ما دعت إليه كلمة الوحي الإلهي .

* وضعت أصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الغزالي ، كما فتحت آفاقاً علمية جديدة في البحوث الإنسانية كفلسفة التاريخ عند ابن

خلدون وعلم البصريات على يد **ابن الهيثم** ، وابتدأت مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضيات على يد **الخوارزمي** . (٨٧)

* ساعدت بآدابها وقيمها الأخلاقية على نهضة الآداب الشعرية في أوربا وفتح آفاق جديدة أمام شعراء الغرب وكتابه .

* ساعد خلفاؤها وقادتها بسلوكهم الأخلاقي وبنماذج المروءة والشرف التي تحلو بها على إشاعة المثل الأخلاقية الرفيعة ، مما كان قدوة لمن احتك بهم ، أو تأثر بهم في السلم أو في الحرب .

* ومن يمعن النظر في أعماق الحضارة الإسلامية وما حققته للإنسانية من أسباب النمو وعوامل الازدهار ، ويلم بما جاء به الفكر الإسلامي من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة ، ترى أي سر هذا الذي استطاع أن يحول عرب الصحراء إلى أساطين في العلم ومشاعل في الحضارة وأفذاذ في الفكر والمعرفة ومنارات في الثقافة ؟!!

وأي قوة رفعت العرب من حال العداوة إلى أبطال وقادة غير هيابين ولا وجالين ؟!

وترى كيف تفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء إلى الحضارة العلياء في أقل مدة عرفتها الإنسانية ؟ !! (٨٨)

وتتلخص الإجابة عن هذه التساؤلات في كلمة الوحي الإلهي ــ الممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية ــ فقد في تعاليمها وتكاليفها أصول الحضارة القويمة وأهم دعائمها ومقوماتها وخصائصها ، وأبرز معاييرها وموازينها ، ثم الغاية التي من أجلها تدعو إليه هذه الحضارة الإسلامية .

---

(٨٧) انظر : من معطيات الثقافة الإسلامية ودورها في نهضة أوربا وتقدمها ــ مقال للباحث بحولية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الخامس عشر .

(٨٨) حولية أصول الدين بالمنوفية ــ د٠أحمد السايح ص٤٤-٤٥ بتصرف يسير .

إن غايتها تتمثل في غاية واحدة وإن تفرعت عنها غايات عدة من التي فطره الله عليها ، وفطرية الحياة وواقع الكون والأحياء .

ومن ثم اختلف مقياس الحضارة الإسلامية على سائر الحضارات البشرية الزائفة ، ويقوم على الأسس التالية :-

أولاً : العبودية لله والخضوع أمام شريعته والتكافل للإيمان بكافة ما شرع وليس التجزئة والانشطارية السائدة في الحضارات المزعومة .

ثانياً : وحدة النفس والروح والفكر والوجدان في طريق واحد دون فصل بينها .

ثالثاً : وحدة الكون والإيمان بالغيب .

رابعاً : إسلام الوجه لله ﷻ .

خامساً : الحفاظ على الذاتية الإسلامية ، والجهاد في سبيل حمايتها .

سادساً : ربط واقع الكون بواقع الحياة وواقع الأحياء وكل ما فيه العالم من صنع الله ﷻ الذي أتقن كل شيء ، وكلما ظهر للإنسان من نواميس العلم وسنن الحياة والكون كان من توجيه الله لمعرفته وإلا فإنه موجود في الكون منذ خلق الله الكون وليست الطبيعة هي التي صنعت ، فالإسلام انتقال من المصنوع والمخلوق إلى الصانع والخالق جل شأنه .

سابعاً : إن الله ﷻ هو الذي كشف عن سنن الحياة والكون ونواميس قيام الحضارة والأمم وسقوطها ، وبين الحق من الباطل والغث من السمين والخير من الشر .

ثامناً : إن المسلم يستطيع أن يقتبس من الأدوات والوسائل والتنظيمات من واقع الحضارات البشرية المزعومة وأساليب العيش والحياة منها شريطة أن تتفق وما جاء في كلمة الوحي الإلهي .

تاسعا : أن يؤمن الإنسان بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، والبعث والجزاء ، ويقيم مجتمعه وعالمه على هذا الأساس .

عاشرا : العلم وسيلة للمعرفة ولبناء الحضارة يقدم على أساس القيم الإسلامية ، ولابد أن يصطبغ بصبغته الإسلامية ليحقق الهدف منه ، وتعاليم الحضارة الإسلامية والمجتمع الرباني .

حادي عشر : علاقة الإنسان بالكون علاقة التسخير والبناء لا الغزو والهدم والفناء ، وعلاقة الإنسانية بعضها ببعض علاقة عطاء وسخاء وتبادل لا عزلة ورهبنة في الحياة ، ولا سطو ولا استعمار ولا معاول هدم .

ثاني عشر : ليست وجهة الكون بما فيه ومن فيه ولا غاية الحياة وواقعها ولا هدف واقع الأحياء الغاية المادية البحتة المجردة من كل قيمة روحية، ولا طغيان هذه على تلك ، بل لابد من التوازن بينهما .

ثالث عشر : لا ينفق المسلم في إنفاق الثروات والخامات في أمور الكماليات ولا في السعي وراء اللذات المحرمة ولا الشهوات المسعورة ، ولكنه يحافظ على معطيات الله وإنفاقها وفق ما شرع وكسبها مما أمر .

رابع عشر : عدم الفصل بين القيم الأخلاقية والتربوية ... [٨٩]

---

(٨٩) الإسلام تاريخ وحضارة ــ أنور الجندي ص٧٨-٧٩ بتصرف يسير .

حادي عشر : شهادات المنصفين من مفكري الغرب للحضارة الإسلامية.

ومما يؤكد نبع كلمة الوحي الإلهي للبناء الحضاري الأسمى على سائر الحضارات البشرية المزعومة ما جاء في شهادات المنصفين من مفكوي الغرب :-

يقول **رينان** : " إن القرآن الكريم هو أساس الإسلام ، وقد احتفظ بكينونته بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف ، وعندما نستمع لآياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد ، وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع الإسلامي التي تنطوي عليها الآيات الإلهية لا يسعنا إلا أن نعظم هذا الكتاب العلوي الإلهي ونقدسه ." (٩٠)

وعن عطاء الحضارة الإسلامية وتأثر أوربا الغربية بها يقول " **ماكسيل**": " كانت أوربا مدينة بأدبها الروائي إلى بلاد العرب وإلى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم ، أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلفة روحاً وخيالاً عن العالم الذي كان يخضع لروحه . " (٩١)

ويقول " **برتراند رسل** " محاكماً حضارة الغرب ومدنيته : " الحضارة الحديثة أهملت الاهتمام بالروح ، والعالم اليوم بحاجة إلى دين جديد يجعل غاية الإنسان خارج هذه الحياة . " (٩٢)

ويقول أيضاً : " لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر

---

(٩٠) الحضارات والديانات ــ طه مندور ص١٢٦-١٢٧ بتصرف يسير .
(٩١) أنظر : من روائع حضارتنا ــ د٠مصطفى السباعي ، نقلاً من : قيم حضارية في القرآن الكريم ــ توفيق سبع ص١٧١-١٧٢ .
(٩٢) نقلاً من : قيم حضارية في القرآن الكريم ج٢ص٢٠٩ .

العدالة ، وتلك قيمة حضارية في النبع الإلهي التي تزدان بـــها التعـــاليم الإسلامية المشرقة . "[٩٣]

وهاك شهادة مجموعة من الشباب الفرنسي اعتنقت الإسلام ونادت فطرهم بهذه الشهادة ، يقولون : " نحن إنما هربنا من الحضـــارة الغربيـــة إلـــى الإسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب والأسلحة ، وأفقدتنا إنسانيتنا حيـــن أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا ، ولقد وجدنـــا فـــي الإســـلام كرامتنـــا واطمئناننا الروحي ، فعدنا بذلك إلى نداءي الفطرة الصافية النقية ."[٩٤]

ويقول مستشرق إنجليزي اعتنق الإسلام مدلياً بهذه الشهادة التي تنبئ عن فساد الحضارة الغربية وانحلالها .. إنـــها ــ أي الحضـــارة الغربيـــة ــ حضارة تفقد الشرف والجمال ، وفقدانها للشرف أمر لا يختلف فيه اثنـــان ولا الناس . "

وفقدانه للجمال لأنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطري وجمـــال الخلق ، أما جمال اللباس وجمال الطبيعة وجمال المدن وجمـــال البيـــت وجمال المرأة فإنها جميعاً مصنوعة تنزع إلى المادية الحيوانية في كـــل شيء ." [٩٥]

هذه الشهادات كشفت مفاسد الحضارة المادية ليـــدرك الإنســـان أن هـــذه الحضارة عارية وغارية ومولية الأدبار ، وإن سر إدبارها وإفلاسها هـــو خلوها من روح الدين الحق ، وإهدارها لأهم خصائص الإنســـان ، إنـــها صيحات تريد ديناً يمنح البشرية سكينة النفس واستقامة الحياة ، دينـــاً لا

(٩٣) المرجع السابق ج٢ص٢٢٠ .
(٩٤) المرجع السابق ج٢ص٢٥٧ .
(٩٥) المرجع السابق ج٢ص٢٥٧ بتصرف يسير .

يحرم الإنسانية مكاسب العلم ، ومكتشفات الحضارة وجبروت الآلة ، ديناً لا يسجن عقل البشرية ، ولا يكبت مشاعرها ولا يصـــدم فطرتـــها ولا يحرم عليها طيبات الحياة. (٩٦)

ومن موازين ومقاييس الحكم على الحضارة الإسلامية وغيرها من ســائر الحضارات البشرية الزائفة ــ أيضاً ــ ينتج أيضـــاً مـــن نظـــرة هـــذه الحضارات جميعها وتصورها لواقع الكون وواقع الإنسان وواقع الحيـلة ، وعلى أساسه تنشأ القيم والأخلاق ، ويتحدد ســـلوك الإنســـان وتتكيـف الحضارات وتقوم النظم والتشريعات وتتوجه الفنـــون ويحـــد الإنســـان طريقه في الحياة ، وهي نظرة ضرورية وحتمية كأساس للفكر والعمـل ، والخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، ولنشأة النظم وشتى الحضارات .. والحكم على حضارة من الحضارات وما ينبع منها من قيم وأخلاق ومـــا يصدر عنها من فنون وآداب وما تقيمه من نظم وتشريعات ، يقتضي هذا الحكم ــ كي يكون واقعياً وسليماً ــ الرجوع إلى الأساس الذي قـــامت أو نبعت منه هذه الحضارة أو تلك ...

والحضارات البشرية على اختلاف مسمياتها حضارات زائفـــة لأن مـــا قامت عليه من نظم ومذاهب وما نبع فيها من قوانين وتشـــريعات بيـــن التهتك واللامعقول والعبث ، وما جرته على البشرية من دمار وخـــراب ، وما قاسته شعوب الأرض في ظلها من ظلم واستغلال وشقاء فضلاً عمـــا تعانيه مجتمعاتها من فساد القيم واختلال الموازين ، وما وصلت إليه مـن انحراف وخلق هابط وما تشكو منه من ظهور الفساد وتفشـــي الجرائـــم وانتشار شتى الأمراض العصبية والنفسية والبدنية والعقلية والروحية ، بل

(٩٦) من أجل صحوة راشدة ــ د٠يوسف القرضاوي ص١٣٣ بتصرف .

أودت بمصير أهلها إلى التخلص من الحياة بالانتحار ، والتمرغ في براثن الجنوح والانحراف ، عن طريق المكيفات الكحولية وغيرها ، وليس من الممكن ــ مع تلك الظلمات ــ أن يستقيم ضمير أو تصلح حياة أو يظهر نظام ، يسعد في ظله الناس ، أو تقوم حضارة ترفع من شأن الإنسان ، والواقع البشري يشهد بأن الحضارة الإسلامية هي أسمى الحضارات في واقع الكون والحياة والأحياء ؛ لأنها واقعية في تصورها لواقع الوجود كله ، والحياة بأسرها .. وهو تصور شامل وواقعي مهما طال الزمن وطالت التجارب وطال التفكير ، وهو تصور متفرد له سماته ومميزاته وخصائصه .. لأنه تصور رباني من صنع خالق الكون والحياة والإنسان، مبرأ من النقص والجهل منزه من كل ما يعيب فكر البشر من صفات الهوى والعجز والقصور . (٩٧)

وهذه شهادة للمفكر الفرنسي " **جارودي** " مشيدا بعظمة الإسلام وسر انتشاره المذهل ، بينما فشلت النظم الغربية ، وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، فيقول : " إن المشاكل الطاحنة التي يعانيها الغرب هي أكبر دليل على إفلاس النظام الغربي وفشله في تحقيق أي قدر من الاستقرار للمواطن ، وأول ما لفت نظري للإسلام التفتح ، فالإسلام هو دين التفتح ، دين التقبل الشامل ، فإذا كانت المسيحية قد ترافضت مع اليهودية ، وبالطبع ترافضت مع الإسلام ، فالإسلام قد تقبل وتفتح على الجميع ، وهذه قوة خالدة فيه ، هذا هو التفتح الأول ، أما التفتح الثاني فهو تفتح الإسلام على الحضارات البشرية ، فلم يقف عند حد التفتح على الأديان وإعطاء النموذج الكامل لها ، وإنما تفتح على الحضارات القديمة والحضارات البيزنطية ، حضارات الإنسان في كل مكان ، وهذا ما يجعل

(٩٧) قيم الحياة في القرآن الكريم ــ محمد شديد ص٢١-٢٤ بتصرف .

الإسلام دين الحضارة السوية وموضع الرجاء ؛ لأنه يعطي نموذجاً شاملاً مدمجاً لكل الثقافات البشرية دون تحيز أو تعصب ، ومن هنا كان الإسلام الأمل في المستقبل كحل حضاري ترتضيه الإنسانية ، حل لا بديل له لأنه أيضا يعطي إجابات متجددة وصالحة لتعبر كل العصور ، ولولا الإسلام لأصبح الوحي الإلهي وحياً ميتاً ، ولكن مع الإسلام سيظل الوحي الإلهي دائما ، وحياً ثابتاً ونشطاً وحياً في القلوب . " [٩٨]

ويقول أيضا ــ عندما سئل وكتب ــ ما الذي يجب أن نتعلمه من الإسلام في الوقت الحاضر ؟ فيذكر بعض الدروس منها :-

(١) إقصاء الأصنام الحديثة في مجتمعات الغرب كصنم النمو والتطور والتقنية والفردية والقومية وقوة السلاح والجيش الغاشم ، وكل منها يحمل محرماته ورموزه المقدسة وطقوسه .

(٢) تعديل موقفنا في التعامل مع الطبيعة ، فبدلاً من الروح العدائية التي دأبنا عليها منذ عصر النهضة علينا أن نتعلم من الإسلام كيف حمّل الإنسان مسئولية الحفاظ على توازن العالم لا تدميره . [٩٩]

وهاك بعضاً من شهادات المنصفين من مفكري الغرب على فساد الحضارات البشرية على اختلاف مسمياتها ، وأنها لا تصلح منهاجاً لواقع الكون والحياة والأحياء :-

يقول الفيلسوف محمد إقبال : " إن مثالية أوربا لم تكن من العوامل الحية المؤثرة في أبنائها ، فلهذا أنتجت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين

---

(٩٨) نقلاً من : نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام ــ ماهر خليل ص١٤١-١٤٢ بتصرف .

(٩٩) الإسلام دين المستقبل لجارودي ص١٨٩-١٩٠ ــ ترجمة عبد المجيد بارودي ــ ط دار الإيمان بيروت ١٩٨٣م .

ديمقراطيات لا تعرف المثل الأخلاقية ، وكل همها استغلال الفقير لصالح الغني ، وصدقوني إن أوربا أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان. " (١٠٠)

وإذا عبرنا عن العصر بلغة مفسري التاريخ والحضارة فإن التقدم التكنولوجي بغير رادع ديني وأخلاقي لا يعبر عن ارتقاء حضاري ، وفي هذا الشأن يحدثنا " جود " فيقول : " أنظر إلى الطائرة التي يدوي صوتها وهي تخترق السماء الصافية في الصيف لقد تظافرت في صنعها معرفة الإنسان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات ومعرفته بالكهرباء والاحتراق الداخلي وعبقريته في تطبيق المعرفة ومهارته في صنع الخشبة والمعادن .. إلخ .

أما الآن فانظر إلى الغرض الذي من أجله استخدمت الطائرة الحديثة ، والذي يبدو أنه ستظل تستخدم من أجله بازدياد ، إنه إلقاء القنابل التي تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطع أوصال أناس عزل . " (١٠١)

ومن هنا ظهرت مأساة الإنسان في الغرب بسبب الفصل القاطع بين عالم الروح وعالم المادة ، وكأنه هو والعالم حوله مجرد مادة بلا روح ، أو نفس لها أشواقها وتطلعاتها ، بينما العامل النفسي والوجداني في الإنسان في حاجة إلى إشباع من لون خاص ، وهو يختلف نوعاً وكماً عن مجرد الإشباع المادي .

لقد فقد الإنسان الغربي الشعور بالهدف الذاتي وأصبحت حضارته المتقدمة المزعومة والمشبوهة تنتج عوامل انحطاطية أكثر خلال الملل

(١٠٠) نقلاً من قيم حضارية في القرآن الكريم ص٨٠-٨١ .
(١٠١) تفسير التاريخ ــ د٠عبد الحميد صديقي ص١٢٠ ط دار القلم ــ الكويت ١٩٨٠م .